الرباعية الاولى

برنت نورتون

BURNT NORTON

للشاعر ت. س. اليوت

ترجمة ابراهيم شكر الله

هذه هي احدى قصائد اليوت المتأخرة [1] . فيهـا الاستغراق الفكري والوجداني في مشكلة الزمن . في الزمن وحده تتألق الخبرة البشرية وتتضح معالمها وتبين في شعاع الوعي ومجال الحركة .

ولكن في الزمن ايضاً الموت والفناء وعزلة الانسان المريرة. بيد ان الزمن بماضيه ومستقبله مجتمع على اطراف اللحظة الراهنة «في النقطة الساكنة للعالم الدوار».

وفي جلاء هذا الالتقاء، في اللحظة النادرة للاشراقة الصوفية — لحظة بستان الورد ، وانبثاقه اللوتس ، وسقوط الشعاع السني على صفحة البركة — توترعنيف وشوق يزلزل اركان الحياة البشرية ، لا تلبث معه ان تنفلت وتتهاوى وتفنى وتفسد من الالفاظ فتظللها السحابة وتتبدد ضحكات الاطفال الصاعدة من بين اوراق الشجر .

لعل الزمن الحاضر والزمن الماضي
قائمان في مستقبل الزمن ،
والزمن المستقبل محتوىً في الزمن الماضي
فاذا كان جميع الزمن حاضراً خالداً
فجميع الزمن اذن ضائع ،
وما « قد يكون » تجريداً
لايزال امكانية دائبة
في مجرد عالم من التأمل .
ما قد يكون وما كان
يشيران الى نهاية ، واحدة قائمة ابداً
[في الحاضر .
وقع اقدام تتجاوب في الذاكرة
اسفل المجازة التي لم نطرقها
ونحو البوابة التي لم نلجها قط
في بستان الورد . وهكذا ،
تتجاوب كلماتي في ذهنك .
ولكن لاية غاية
اثير الغبار على اصيصة اوراق الورد
لست اعلم .
واصداء اخرى
تسكن البستان . فهل نتبع؟
عجلوا قالت العصفورة، جدوها، جدوها
عند المنعطف . خلال البوابة الاولى ،
في داخل عالمنا الاول، فهل نتبع
خداع السمنة ؟ داخل عالمنا الاول .
هناك كانت ، جليلة ، غير مرئية ،
تتحرك دون وقع، على اوراق الشجر الميتة
في قر الخريف خلال الهواء المتجاوب ،
ونادت العصفورة، استجابة
لموسيقى غير مسموعة في الخميلة ،
ووقع شعاع سني غير مشاهد، فعلى الورد
ارتسمت صورة ازهار وقعت عليها الاعين
هناك كانوا كضيفان نزلوا بنا راضين مرضيين
فانثنينا وهم ، في صيغة مرسومة ،
على الدرب الخالي، في دائرة الصندوق،
لننظر في البركة المصفاة .
افرغوا ماء البركة ، افرغوها حتى القاع،
[سمراء الحواشي،
وامتلأت البركة مياهاً من شعاع الشمس،
واشرأبت اللوتس، وئيداً وئيداً ،
وتألقت الصفحة من قلب ضوء ،
وكانوا خلفنا ، وقد انعكست صورتهم
[على صفحة البركة ،
عند ذاك مرت سحابة فغاضت البركة
امضي ، قالت العصفورة ، فأوراق
[الشجر غاصة بالاطفال ،
مختفين مستترين، وقد احتواهم الضحك،
امضي ، امضي ، امضي قالت العصفورة :
[فالبشر
لايستطيعون حمل ثقل الحقيقة
الزمن الماضي والزمن المستقبل
ما قد يكون وما كان
يشيران الى نهاية واحدة، قائمة ابداً في الحاضر

٢

الثوم والياقوت في الوحل
انعقدا على الجذع الغائر .
والسلك المرتعش في الدم
يغني تحت ندوب عميدة
ليسكن غائلة حروب طال نسيانها
والرقصة على الوريد
وتدفق الدم في العصب
مرسومة في انسياق النجوم
صاعدة الى الصيف في الشجرة
ونحن نتحرك فوق الاشجار السائرة
في ضوء على الورقة المرسومة
ونصيخ السمع على الارض المخضلة
اسفل ، حيث الكلب المطارد والخنزير
[المطارَد
يسعيان في سبيلهما المرسوم مثل قبل
ولكنهما في وئام بين النجوم .
في اللحظة الساكنة في العالم الدوار . لا
[الجسد ولا المتجرد من الجسد ؛
لا « من » ولا « نحو » ؛ في اللحظة
[الساكنة ، هناك الرقصة ،
ولكن لا انقباض ولا حركة . ولا
[نقل هو رسوخ ،
حيث يجتمع الماضي والمستقبل . فـلا
[حركة « من » ولا « نحو » ،
لا ارتقاء ولا تدهور . الا للنقطة .
[النقطة الساكنة ،
فليس من رقص وليس سوى الرقص
ولا استطيع سوى القول، هناك كنا:
[ولكني لا استطيع القول اين كنا.
ولا استطيع ان اقول، حتى متى ظللنا،
[فهذا وضعه موضع الزمن.
الحرية الداخلية من الرغبة العملية ،
الانطلاق من الحركة والمقاساة، الانطلاق

1 Four quartets : by T. S. Eliot.

من القسر الداخلي والخارجي ولكنه محاط
بنعمة من الحاسة ، ضوء ابيض ساكن
[ومتحرك ،
ارتقاء بدون حركة ، تركيز بدون
ازالة ، كلا العالم الجديد
والعالم القديم وقد اتضحا وادركا
في كمال حالة من الوجد الجزئي ،
في استقرار رعبه الجزئي .
ولكن تكبيل الماضي والحاضر
وقد نسجا في ضعف الجسم المتغير ،
يحمي البشرية من السماء والدينونة
وما لا يستطيع الجسد ان يحتمله ،
الزمن الماضي والزمن المستقبل
لا يتيحان غير قليل من الوعي .
ان تكون واعياً معناه ان لا تكون
[في الزمن
ولكن في الزمن وحده تستطيع لحظة
[بستان الورود ،
لحظة الخميلة حيث ضربات المطر ،
اللحظة في الكنيسة التي تخترمها الريح
[عند سقوط الدخان
ان تُذكر وقد اختلطت بالماضي والمستقبل
خلال الزمن يقهر وحده الزمن .

٣

هنا مكان السخط
الزمن السابق والزمن اللاحق
في ضوء قاتم : لا اشعة النهار
وقد غمرت الشكل بسكون بهي
وحولت الظل الى جمال حائل
بدورات بطيئة تشير الى الدوام
لا ظلمة تنقي الروح
تفرغ الحس بالحرمان
تغسل الحب من الزمن
لا فيض ولا فراغ ، بل ذبالة
فوق الوجوه المتقلصة من وطء الزمن
غشاها خبال من الخبال بالخبال
طافحة بالخيالات وخالية من المعنى
جمود متورم بلا تركيز
رجال وقطع من الورق تسفها الريح الباردة
التي تهب قبل الزمن وبعده ،
ريح من صدور مريضة
الزمن السابق والزمن اللاحق .
تجشؤ لارواح عليلة
في الهواء الباهت — القذيفة
المنطلقة على الريح التي دمرت تلال
[لندن الكئيبة
تلال هامبستيد وكلوركنويل ، كامبدن
[وبونتي
هايجيت وبريمروز وليدجيت . ليس هنا
ليس هنا في الظلمة في هذا العالم المغرد .

اهبط نازلاً ، اهبط
في عالم الوحدة الدائمة ،
عالم وليس عالماً ، بل ذلك الذي ليس بعالم ،
ظلام داخلي ، حرمان
وتجرد من كل ما نملك ،
وتشريح لعالم الحس ،
وهجرة لعالم الخيال ،
وتعطل لعالم النفس ؛
هذا هو السبيل الوحيد ، والآخر
مثله ، ليس في الحركة
بل في انتفاء الحركة ، بينما العالم يدور
في شوقه ، في طرقه المعدنية
للزمن الماضي والزمن المستقبل .

٤

الزمن والاجراس وارت «اليوم» التراب
والغمامة السوداء تحمل الشمس بعيداً .
فهل تحول زهرة عباد الشمس صفحتها نحونا
هل تهبط اللبلابة الينا وتتشابك
اعطافها واوراقها
وتصطفق ؟

٥

والاصابع الثلجية لشجرة الشوح تتقلص
هابطة نحونا ؟ بعد ان اجاب جناح القرلى
الضوء بالضوء ، وغشاه الصمت ، والضوء
[ساكن
في اللحظة الثابتة للعالم الدوار .
الالفاظ تتحرك ، والموسيقى تتحرك
في الزمن وحده ؛ ولكن الذي يعيش
[هو وحده
الذي يستطيع الموت . الالفاظ ، بعد
[فراغ الحديث ،
تدخل السكون . بالشكل وحده والنسق
تستطيع الكلمات او الموسيقى ان تبلغ
السكون ، مثلما يظل اصيص صيني في حركة
دائمة في سكونه . لا سكون الكمان ،
[بينما النغمات تتجاوب ،
ليس هذا فحسب ، ولكن الوجود المجتمع ،
او قل ان النهاية يجب ان تسبق البداية ،
وان النهاية والبداية كانتا دائماً هناك
قبل البداية وبعد النهاية .
وكل شيء دائم الآن . الالفاظ تتوتر ،
تتقلص احياناً تتكسر ، تحت الثقل
تحت التوتر ، تنفلت ، وتنزلق ، وتفنى
وتفسد من الغموض ، لن تظل مكانها ،
لن تظل ساكنة . والاصوات التي تجأر
المؤنبة الساخرة او التي ترغب فحسب
تصلاهم دائماً . الكلمة في البيداء
تصلاها اصوات الاغراء ،
الظل الصارخ في رقصة الجنازة ،
الولولة العالية في التهويلة الملتاعة .

تفصيلة الصيغة هي الحركة ،
كما في صورة الدرج العشرة .
الرغبة نفسها حركة
غير مرغوبة في نفسها
الحب نفسه غير متحرك
ولكنه مصدر الحركة ومنتهاها
بلا زمن ودون رغبة
الا في شكل الزمن
مشتبكة في صورة الحدودية
بين اللاوجودية والوجود .
فجأة في شعاع من ضوء الشمس
وحتى حينما يتحرك الغبار
تتعالى الضحكات الخفية
للاطفال بين اوراق الشجر
سريعاً الآن ، هنا ، الان ، دائماً —
ما اسخف ضياع الزمن الحزين
ممتداً قبل وبعد .

القاهرة — نقلها الى العربية
ابراهيم شكرالله